النبي المقنع

بقلم الامبراطور نابليون بونابرت

نقلها الى العربية عن الترجمة الانجليزية[1]

الأستاذ ابراهيم عبد الحميد زكي

مقدمة

لا تنحصر أهمية هذه القصة في كونها أثراً من آثار رجل عظيم فحسب؛ بل تتعدى ذلك إلى ما تكشف للناس عنه من اتجاه نابليون وطموحه قبل أن تتيح له الثورة الفرنسية فرصة إظهار عبقريته ونبوغه في الحرب والقيادة . فقد كان نابليون حتى عام ١٧٨٩ ضابطاً صغيراً في الجيش الفرنسي ، ولم يكن قد ظهر له من المواهب شئ يسترعى الأنظار ، وكانت أسرته الكورسيكية قد أخنى عليها الدهر وقضت الأيام بأن تعانى شدائد العسر والضيق المالي ، فرأى الشاب أن يحزم أمره ويعقد عزمه على إصلاح شئونها وتفريج كربها بالالتجاء إلى الأدب عسى أن يظهر فيه ويذيع اسمه فينال من الشهرة ما يكفل له رواج كتبه وسعة رزقه ، فاتجه بجميع قواه نحو تحقيق هذه الغاية ، وبذل من الجهد العصبي في هذا الميدان مثلما قدر له أن يبذل في ميدان الحروب والقتال ، فوضع كتاباً في تاريخ جزيرة كورسيكا وهذبه على الأقل ثلاث مرات ؛ وألف رواية كورسيكية أيضاً وعدة قصص صغيرة وبضع قصائد شعرية ومقالات كثيرة . فعل هذا كله ولم يبلغ سن العشرين ، ولكن ذلك لم يجد عليه نفعاً ولم يحقق ما كان يطمح إليه ، فلم ينشر كتاب التاريخ ، وظلت روايته مخطوطة ، ولم تر مقالاته ولا قصصه الضوء إلا بعد سنوات كثيرة من تأليفها

ولقد قيل عن قصة «النبي المقنع» إنها محض خيال ، وإنها لا تستند إلى شئ من الواقع ، ولكن هذا غير صحيح . حقاً إن نابليون لم يتبع الدقة التامة في ذكر التفاصيل ، ولكن هذا لا يعني أن القصة لا تقوم على أساس تاريخي صحيح ، بل إن المرء يلاحظ أنه عرض حوادثها عرضاً تمثيلياً (دراماتيكياً) قوياً . وقد كتبها نابليون عام ١٧٨٧ ، وجرى في تأليفها على أسلوب فولتير ونشرت عام ١٨٢١ — أي عام وفاته

القصة

في سنة ٧٧٦ ميلادية ، أي بعد مائة وستين عاماً من هجرة النبي محمد ، كان ميكادي[1] خليفة في بغداد ؛ وكان أميراً نبيلاً ذا بأس وقوة ، تخشيه جيرانه وتقدره وتجلّه . وفي ظل حكمه العادل تمتعت بلاد العرب بالسلم والرخاء . وكان الخليفة راعياً للعلوم والفنون فتقدمت الحضارة في عهده تقدماً سريعاً ؛ إلى أن كدر صفو هذا الهدوء والتقدم قيام متنبئ جديد . ظهر هذا الرجل واسمه حكيم في مدينة خراسان فتبعه خلق كثير في وقت قصير . وكان طويل القامة فصيح اللسان فادعى أنه صوت الله على الأرض وقال : إن الواجب أن يكون الناس جميعاً من حيث المراتب والثروة سواء . واستهوى هذا القانون أفئدة الدهماء فهرع إليه ألوف من الناس وكان له بذلك جيش عظيم

ولما رأى الخليفة والنبلاء خطر هذه الثورة عقدوا العزم على خنقها في المهد ؛ ولكن جيوشهم كانت تلاقي الهزيمة تلو الهزيمة فازداد بذلك أنصار حكيم يوماً بعد يوم

وبينا كان هذا النبي في أوج مجده إذا به يصاب بمرض شديد ، وكان هذا المرض نتيجة الجهد المضني الذي بذله في المعارك التي خاض غمارها . فلما خفّت وطأة المرض ونال الشفاء أيقن أن حسنه قد ذهب ، وأنه لم يعد بعد خير رجال العرب

(١) نشرت الترجمة الانجليزية لهذه القصة لأول مرة في عدد شهر ديسمبر سنة ١٩٠٩ من مجلة Pearson's صفحة ٥٩٣ واسم المترجم الانجليزي سيدني ماتنجلي Sidney Mattingly

(١) يريد المهدي ، ويلاحظ أن رسم Mikadi قريب من Mahdi ، فاما أن يكون نابليون قد أخطأ في النقل ، وإما أن يكون المصدر الذي أخذ منه قد وقع في هذا الخطأ

وأوسمهم إذ كان قد عمى وخبا إلى الأبد ضوء عينيه الرائع

ولما أحس بأن هذا التشويه الطارئ قد يفقده السيطرة على أتباعه والتأثير فيهم، رأى أن يحجبه عن أعينهم بقناع من فضة وضعه على وجهه . فلما فعل ذلك عاد إلى الاتصال بهم والتجول بينهم يخطبهم ويؤثر فيهم بفصاحته المعهودة، فظل الناس مأخوذين بعذوبة لسانه وسحر بيانه كما كانوا من قبل ؛ وكان يعلل لهم إخفاء وجهه عنهم بأنه يخشى عليهم أن يبهر أعينهم ذلك الضوء الفياض الخارق للطبيعة الذى ينبعث منه . إذ تبين له أن الظرف الحالى يقضى عليه بأن يعتمد أكثر من ذى قبل على الحماس الدينى الذى أوقد شعلته وأثار كوامنه فى نفوسهم

ولكن هذه الحال لم تدم كثيراً إذ أصيب أتباعه فجأة بهزيمة منكرة على أيدى جيوش الخليفة ؛ فكانت هذه الهزيمة صدمة عنيفة وجهت إلى صميم هذا الدين الجديد؛ فهجر حكيما كثير من أنصاره، وتراجع هو ومن بقى معه من أتباع قلائل إلى مدينة محصنة محوطة بأسوار عالية ؛ ولكنه لم يلبث قليلاً حتى أحدق به جند الخليفة وحاصروه

وتبين الآن أن أمام حكيم أحد طريقين : فإما أن يموت ، وإما أن يحدث له ما هو أسوأ من الموت وهو الوقوع أسيراً فى أيدى أعدائه ، فجمع أتباعه وخطب فيهم قال :

أيها المؤمنون ! لقد اختارنا الله ورسوله لإعادة بناء هذه الأمة واسترجاع مجد الإنسان ؟ فلماذا إذن يثبط من عزمنا ويلقى اليأس فى قلوبنا كثرةُ أعدائنا ؟ أصغوا إلى ! فى الليلة البارحة والناس نيام سجدت لله طويلاً ودعوته فى حرارة قلت : أبتاه ! لقد رعيتنى وحميتنى هذه السنين الطوال فهل أثمت أو أثم أحد من أتباعى حتى تخليت عنا ؟ فسمعت صوتاً يجيب : يا حكيم إن أتباعك الذين حافظوا على عهودهم وظلوا معك يناصرونك ولم يتخلوا عنك فى ساعة الحرج ، أولئك هم الذين سأنجيهم وأنصرهم ، وأولئك هم الذين سيقاسمونك غنائم أعدائهم الطغاة وأموالهم . إنتظر حتى يزغ القمر الجديد، فإذا بزغ فأمرهم أن يحفروا خنادق فى الأرض كثيرة فيسقط أعداؤهم فيها ويهلكون

ففعلوا ما أمروا به ، وحفرت الخنادق وألقى فيها مقادير هائلة من الجير ، ووضع على حافاتها أوان من النحاس كبيرة ملئت زيوتاً قابلة للاشتعال

وعندئذ أقام حكيم حفلاً كبيراً دعا إليه أنصاره فأكلوا وشربوا من الخمر الذى قدم إليهم

ولكنهم لم يلبثوا أن وقعوا على الأرض صرعى يألمون أشد الألم من السم الزعاف الذى مزجت به الخمر، ثم فارقوا الحياة . وكان حكيم وحده لم يذق هذه الخمر فأخذ جثثهم وألقاها فى الخنادق ليتلفها الجير ثم سكب عليها الزيوت وأشعل فيها النيران ؛ فلما تصاعدت أعمدة اللهب والدخان قفز فوق أتباعه فاحترق وكان من الهالكين

وفى اليوم التالى تقدم الخليفة وجيوشه صوب المدينة وأرادوا اقتحامها ولكنهم عند ما اقتربوا من أبوابها وجدوها مفتوحة على مصراعيها بغير حراسة ، فوقفوا قليلاً وترددوا خشية أن يقعوا فى كمين أعد لهم ؛ ثم دخلوها بعد قليل فإذا بها خالية من الناس، وإذا بالنبى وأتباعه جميعاً قد هلكوا إلا امرأة واحدة من حظايا حكيم

قصة يكاد العقل يأبى تصديقها لغرابتها ، وهى تبين المدى البعيد الذى يذهب إليه الناس أحياناً طمعاً فى الشهرة وبعد الصيت

تعليق

هذه هى القصة كما كتبها نابليون وهى تتفق فى جملتها مع الرواية العربية التى سنأتى بخلاصتها فى الأسطر التالية :

ظهر المقنع كما يقول ابن الأثير فى حوادث سنة تسع وخمسين ومائة بمدينة خراسان ، وكان رجلاً أعور قصيراً من أهل مرو يسمى حكيما . وكان قد اتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه لئلا يرى ، فسمى المقنع وادعى الألوهية ، ولم يظهر ذلك إلى جميع أصحابه . وكان يقول بالتناسخ فيزعم أن الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح وهلم جرا إلى أبى مسلم الخراسانى ، ثم تحول إلى هاشم ؛ وهاشم فى دعواه هو المقنع . وتبعه

خلق كثير من ضلال الناس ؛ وكانوا يسجدون له من أى النواحى كانوا ؛ واجتمع إليه خلق كثير وظهرت المبيضة[1] ببخارى والصغد معاونين له

وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل المهدى إليه أبا النعمان والجنيد وليث بن نصر فحاربوه مرة بعد مرة ، ثم أنفذ إليه جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد فاشتغلوا بالمبيضة الذين كانوا ببخارى فقاتلوهم أربعة أشهر فى مدينة بوبجكت فقتل منهم سبعمائة ولحق منهزموهم بالمقنع ؛ ثم سير المهدى أبا عون لمحاربة المقنع فلم يبالغ فى قتاله واستعمل معاذ بن مسلم

وفى سنة إحدى وستين ومائة سار معاذ بن مسلم وجماعة من القواد والعساكر إلى المقنع وأوقعوا بأصحابه وهزموهم ، وقصد المنهزمون إلى المقنع بسبام فعمل خندقها وحصنها . ووقع بعد ذلك فترة بين معاذ وأحد القواد وهو سعيد الحرشى فكتب الحرشى إلى المهدى يقع فى معاذ ويضمن له الكفاية إن أفرده بحرب المقنع ؛ فأجابه المهدى إلى ذلك ، فحاصر المقنع وأطال الحصار ، فطلب أصحاب حكيم الأمان سراً فأجابهم الحرشى إلى ذلك فخرج نحو ثلاثين ألفاً ، وبقى مع المقنع زهاء ألفين من أرباب البصائر . وتحول رجاء بن معاذ وغيره فنزلوا خندق المقنع فى أصل القلعة وضايقوه . فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله وسقاهم السم فأتى عليهم ، وأمر أن يحرق هو بالنار لئلا يقدر على جثته . وقيل بل أحرق كل ما فى قلعته من دابة وثوب وغير ذلك ؛ ثم قال من أحب أن يرتفع معى إلى السماء فليلق نفسه فى هذه النار . وألقى بنفسه مع أهله ونسائه وخواصه فاحترقوا . ودخل العسكر القلعة فوجدها خاوية ، وكان ذلك مما زاد فى افتتان من بقى من أصحابه والذين يسمون المبيضة فيما وراء النهر ، إلا أنهم يسرون اعتقادهم . وقيل بل شرب هو أيضاً من السم فمات . فأنفذ الحرشى رأسه إلى المهدى فوصل إليه

(١) يقول سيد أمير على (الترجمة العربية للأستاذ رياض رأفت صفحة ١٩٩) : وقد كان أصحاب المقنع يلبسون الملابس البيضاء ولهذا سموا بالمبيضة ، كما أطلق على فرقة خديعة أخرى فى « جورجان » اسم المحمرة لارتدائهم الملابس الحمراء ، وكانوا يدينون بمبادئ إباحية مفرطة

وهو بحلب سنة ثلاث وستين ومائة فى غزواته

وقد كانت هذه الرواية وغيرها معروفة على الأرجح فى القرن الثامن عشر عند أكثر الأدباء الغربيين فاستهوت أفئدتهم وأثارت أخيلتهم لغرابتها وطرافتها ، ولانتحار المقنع هذا الانتحار المروع ، فاتخذها بعض الأدباء والشعراء موضوعاً لقصصهم وأشعارهم . ولعل أشهر من تناولها بشىء من الاحتفال والعناية فى القرن التاسع عشر هو الشاعر الإنجليزى المشهور توماس مور Thomas Moore (١٧٧٩ — ١٨٥٢) وهو صديق الشاعر الكبير لورد بيرون وكاتب ترجمة حياته ورسائله . وقد أفرد لقصة المقنع الجزء الأول من قصيدته الكبرى Lalla Rookh [1] فأثنى النقاد على هذه القصيدة ثناء عظيما لدقة وصف الشاعر للبلاد الشرقية وروحها ؛ ولكن هازلت الناقد المعروف أنكر شاعريتها ورأى فيها من آثار الصنعة أشياء كثيرة تفوق ما انطوت عليه القصيدة من روح شعرية صافية[2]

ابراهيم عبد العزيز زكى

(١) نشرت عام ١٨١٧

(٢) يرجع فى ذلك إلى كتاب سر وليم ميور عن الخلافة الاسلامية صفحة ٤٧٠ طبعة ١٩٢٤ ، وإلى دائرة معارف الأدب الانجليزى Chambers's صفحة ٣٦٣ وما يليها

إعلان

تعلن مصلحة الأموال المقررة فقد القسيمة البيضاء رقم ٤١٩٢٨١ من الدفتر رقم ٨٢ (أموال مقررة)

وقد اعتبرت المصلحة هذه القسيمة لاغية . فكل من حاول استعمالها يعرض نفسه للمحاكمة الجنائية .

٩٠٦٧